

باب الكتب الجديدة

فلسفة للمستقبل

نشر سلرز وآخرين . نيويورك ١٩٤٩

"Philosophy For The Future", ed. by R.W. Sellars & Others; New York
Macmillan, 1949.

نشرنا في العدد الثاني من المجلد السابع من هذه المجلة بحثاً بعنوان « الأزمة الراهنة في علم النفس الاجتماعي » أوضحنا فيه كيف أن جوهر المشكلة التي تعترض سبيل الدراسات النفسية في الوقت الحاضر وتعمق تقدمها ، هو في عدم وجود النظرية الشاملة ، أو بعبارة أخرى هو في عدم وجود المفاهيم الصالحة لأن تنظم فيها تلك الوقائع النفسية التي لا حصر لها مما تم الكشف عنه في البحوث الحديثة . وعندنا أن البحث في هذه المفاهيم ومحاولة إيجادها هو المهمة الكبرى التي تقع على عاتق الباحثين النفسيين مسئولية إنجازها . وأن الشعور بثقل هذه المهمة والحاحها هو الخطوة الأولى في سبيل المساهمة الأصلية في تقدم الدراسات النفسية والاجتماعية .

والواقع أن هذه المشكلة كما تبدو لنا في ميدان تخصصنا إن هي إلا مظهر جزئي لأزمة عامة تتاب فروع البحث العلمي جميعاً . وهذا هو ما توحى به بحوث هذا الكتاب الذي تقدمه الآن . فالقارئ فيه يشعر بأن العلم يشبه اليوم نهراً قد انتهى إلى سهل صخري ليس له فيه مجرى فإذا بمياهه تنتشر في اتجاهات متعددة ضحلة ، مما يفقدها الكثير من إمكاناتها . ولا تخرج من هذا الموقف العصيب ومن هذه البعثة التي لا طائل تحتها إلا بتعميق مجرى النهر ليواصل انحداره إلى مصبه الطبيعي . هذا هو بالضبط موقف العلم في الوقت الحاضر . والكتاب الذي نحن بصدد تقديمه يقدم عدة بحوث لعدة باحثين في شتى فروع المعرفة يصور كل منها هذه المشكلة كما هي حادثة في الفرع الخاص به ويقدم المفاهيم الرئيسية التي تعين على الخروج من هذا الموقف .

على أننا سوف إنقتصر هنا على تلخيص بعض ما ورد فيه من بحوث في ميدان تخصص هذه الحقلة .

• • •

وأول هذه البحوث بحث عقده جردسون هيريك C.J. Herrick بعنوان « نظرة بيولوجية للمستويات التكاملية » ، قدم فيه فكرة التكامل وكيف ينبغي أن تفهم فيها ارتقائياً . فقال إن لبعض عوامل التكامل العضوية ما يناظرها في العالم غير العضوي مثل آليات التكييف الخاصة بتوزيع الجهد الميكانيكي ، وآليات تنظيم جريان السوائل وتغيرات الحرارة ، وقابلية الأغشية للإنفاذ .

وهناك عوامل تكاملية عضوية ليس لها ما يناظرها في العالم غير العضوي . فبازدياد حجم الحيوان وتعقده يتحتم وجود موصلات للتوصيل السريع بين المراكز المختلفة . ويقوم الدم بأداء هذه المهمة الى حد ما . ولكن الجهاز العصبي يعتبر أهم جهاز للقيام بها في المملكة الحيوانية كلها - إذا استثنينا المستويات البدائية^(١) . ويمضى ارتقاء الجهاز العصبي في اتجاهين : أحدهما تحليلي والآخر تركيبى . ويتجلى الاتجاه التحليلي في تمايز الوظائف الحسية المختلفة (من سمع وبصر . . الخ) والوظائف الحركية المختلفة . ويتجلى الاتجاه التركيبى في تآزر هذه الوظائف جميعاً وتكاملها^(٢) . وتزداد أهمية السيطرة المركزية في الجهاز العصبي كلما ارتفعنا في مستويات التطور ، وذلك لازدياد تعقد مشكلات السلوك . وتبعاً لذلك تزداد أهمية الدور الذي يقوم به اللحاء ، ويصحب ذلك ازدياد حجمه ، هذا مع العلم بأنه العضو الرئيسى المختص بعملية الاكتساب . وتقدم لنا الدراسات الفيلوجينية (الخاصة بتطور النوع) الأمثلة المتعددة التي تشهد بصدق هذا التطور . ونحن نكتفى هنا بمثال واحد . فشهادة الحفريات تدل على أن تطور الزواحف البدائية قد سلك طريقين ، أدى أحدهما الى الطيور ، وأدى الثانى الى الثدييات . وفي الطيور نلاحظ أن الجزء الخلفى من الدماغ متضخم بينما نجد اللحاء هزيل جداً . وعلى العكس من ذلك في الثدييات ، فجذع النصفين الكرويين يتضائل بشكل واضح بينما يتضخم اللحاء وتتغاير أجزاؤه .

(١) « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » - الدكتور يوسف مراد - مجلة علم النفس ،

عدد ٣ مجلد ٢ .

(٢) "L'Eveil de L'Intelligence", par Dr. Y. Mourad; Alcan; Paris, 1939.

وهذا الفارق في التكوين العصبي هو أحد الأسس الهامة في فهم أوجه الاختلاف الرئيسية بين سلوك الطيور وسلوك الثدييات . فالطيور بوجه عام تعتمد على أنماط السلوك الوراثية الجمادة ، والطائر الفرد ليس شديد القابلية للتكيف كما أن قدرته على الاكتساب أضعف بكثير من قدرة الثدييات العليا . في حين أن أهم ما يميز الثدييات ازدياد قدرة الفرد على التكيف والتعلم ، وازدياد نسبة السلوك الذكي لديها لا سيما في المستويات العليا منها .

ومن هنا يتضح أن مفهوم التقدم والارتقاء كما ينبغي أن يستعمل في دراسات الحياة ، يجب أن يعنى به : اتساع نطاق الخبالات التي تصلح فيها عملية التكيف ، وتنوع هذه العملية . وهذا المعنى للارتقاء يمكن استخدامه في حالة الفرد وفي حالة النوع جميعاً . ومن ثم فسوف نجدنا دائماً بصدد مستويات متتالية من التكامل الذي يزداد تنوعاً وصلاحية efficiency وكما يصدق هذا المعنى في فهم ارتقاء الفرد والنوع ، كذلك يصدق في فهم ارتقاء الجماعة . فالتغيرات الارتقائية في تتضمن دائماً ظهور التغيرات المتمركز في بعض المراكز ، بحيث يكون لكل مركز القدرة على الفعل المستقل . إلا أن هذا الاستقلال المحلي يظل - في الحالات السوية - تحت سيطرة الكل . وإلا ظهر التضارب والصراع بين الأجزاء ، وكانت النتيجة إضعاف صلاحية الكل ، وربما الموت كما في السرطان ، وربما الانقسام كما في انقسام بعض الديدان ، أو انقسام مجتمع إنسانى واحد إلى عدة فئات متعارضة متبادلة .

كذلك قدم شنيرولا T.G. Schneirla بحثاً يوضح فيه عملية الارتقاء والمفاهيم التي يمكن أن تنتظم مظاهرها المختلفة ، تحت عنوان « المستويات في القدرات النفسية للحيوان » . وشرح في هذا البحث مفهوم « المستويات » levels وكيف أنه من أفضل التصورات لفهم عملية الارتقاء . فقال إن اصطلاح « المستويات » وسيلة تصورية لا بأس بها لوضع نظرية تنتظم مختلف أنماط التكيف مع ظروف الحياة التي تواجه مختلف الكائنات . ولكن يجب الحيلة عند استخدامها وذلك بالتنبيه إلى بضع حقائق هامة :

(١) منها أن الخصائص الفريدة التي تظهر في مستوى جديد من مستويات التنظيم يجب ألا تفسر بأنها ترجع إلى نوع جديد من الطاقة أو إلى خصائص

حيوية جديدة^(١) ولكن باعتبارها خصائص وظيفية تبرز من نمط جديد للتنظيم يختلف في بعض وجوهه عن الأنماط الأدنى منه والأعلى منه .

(٢) ومنها كذلك أن الدراسة المقارنة في ميداننا لا تعنى أننا نفرص رد علم النفس إلى مجموعة من المصطلحات البيولوجية ، كما أن إصلاح هذا الخطأ لا يكون بتجاهل البيولوجيا تجاهلاً تاماً^(٢) .

(٣) ومنها كذلك أن « البنائيات » التي نجدتها في المستويات المنخفضة يجب ألا نتوقع وجودها (كما هي) كأجزاء في البنائيات الموجودة في مستويات أعلى . مثال ذلك أننا نكون مطحيين جداً إذا اعتبرنا « الإنسان الغريزي » كأى حيوان أدنى منه مرتبة . لأن ذلك يتضمن القول بأن استئصال الطبقات العليا من الدماغ يجعلنا نجد تحنها ما يوازي الحيوان تماماً . كذلك لا يمكن الزعم بأن اندماج جماعة صغرى في المجتمع يشبه اندماج الفرد في جماعة صغرى .

وبقدم لنا شيئاً بعد ذلك نظرات خصبة في راتقاء عملية التكامل الاجتماعي من تجمعات الحشرات حتى الجماعات الإنسانية ، تكشف عن الثوابت والمتغيرات في هذه العملية . ويمكن اعتبار هذه النظرات بمثابة نماذج تحتذى في الدراسة العلمية للارتقاء على ضوء مفهوم المستويات . وأهم ما فيها كيفية إبراز الجانب المستمر في جميع مستويات الحياة الاجتماعية ، دون الإقلال من شأن الجوانب الجديدة في كل مستوى .

ويقدم مكجيل V.J. McGill مقالا بعنوان « معالجة سيكولوجية للشخصية » يبرز فيها أهمية العامل التاريخي في تحديد نمطها . ويقول إن كثيرين من العلماء عرفوا هذه الأهمية فأصروا على إبرازها في بحوثهم ، ومن هؤلاء بافلوف Pavlov وجنات Gnat وريكيريز R. Yerkes ولدل Liddell وماسرمان Masserman . فقد عرف هؤلاء جميعاً — أثناء دراساتهم التجريبية لسلوك الحيوان — أهمية الوقوف على سلوكه قبل الجلسات المعملية وفيما بينها . كذلك يقرر هب Hebb على أساس

(١) « معنى التكامل الاجتماعي عند برجسون » — مصطلح سوف — مجلة علم النفس ، عدد ٢

مجلة ٥ .

(٢) « مبادئ علم النفس العام » — الدكتور يوسف مراد — دار المعارف القاهرة ١٩٤٨ —

الدراسات التي أجريت في معامل يركيز أن الخبرة الماضية للشمبانزية جوهرية لتأويل سلوكها الراهن . فإذا تجاهلنا وقائع تاريخ الحياة فإننا لن نستطيع تشخيص الانفعالات ولا فهم الدوافع . فالتفرقة بين الحجل والعصبية والخوف ضرب من الخيال إذا نحن لم نعرف عن ماضى الحيوان شيئاً^(١) .

ومع ذلك فإن الاتجاه الراجح الآن في دراسات الشخصية — رغم أن أهمية العامل التاريخي في دراستها تبدو أوضح بكثير من أهمية في دراسة سلوك الحيوان — هو الاتجاه المضاد للتاريخية *antihistoricism* . فكورت لفين K. Lewin وهو من الأسماء المبرزة في هذا الميدان يصر على تأكيد أهمية البيئة المباشرة للسلوك ، ويكاد يستبعد أثر البيئة الماضية تماماً . وهو يعلل ذلك بقوله : لما كان الماضى لا يوجد في اللحظة الحاضرة ، فإنه لا يمكن أن تكون له آثاره في الحاضر . ولذلك فإننا في تمثيلنا لخجال الحياة يلزمنا أن نحسب حساب ما هو حاضر فحسب . والواقع أن هذا القول من لفين تبدو عليه سمة الصدق . ومن الممكن — نظرياً — تفسير سلوك الشخصية تفسيراً كاملاً بالرجوع إلى الوقائع الحاضرة في مجال السلوك فحسب ، على شريطة أن تكون جميع هذه الوقائع معروفة لنا بما في ذلك « الآثار » القائمة في الجهاز العصبي . ولكن هذا الشرط غير متوفر اليوم ولا يتظر أن يتوفر في القريب العاجل . فالواقع أننا نقرر قيام آثار الجهاز العصبي استنتاجاً من معرفتنا بخبرات الفرد الماضية . ومن ثم فإن التوجيهات المنهجية التي يقدمها لنا لفين في هذا الصدد لا تستطيع أن تسعفنا اليوم ، ونحن في هذا المستوى الذي تقف عنده دراساتنا النفسية في الوقت الحاضر . وأقصى ما يمكن أن يقال فيها إنها مثل أعلى بعيد التحقيق . ويستشهد لفين بدراسات جاليليو Galileo في الحركة وكيف أنه أغفل العامل التاريخي عندما أراد أن يستخلص قوانينها . إلا أننا هنا بصدد مستويين مختلفين للظواهر ، ومن ثم فلا يمكن المقارنة بينهما بهذا اليسر^(٢) . والمهم أنه في حالة الكائنات الحية حتى ولو كانت البروتوزوا فإن لسلوك الماضى شأناً لا يمكن إغفاله . على أننا لا نستطيع أن نقول إن الجشطالتيين ينكرون أثر

(1) Hebb, D.O. "Emotion in Man and Animal: An Analysis of The Inrutive Process of Recognition", Psychological Rev., vol. 53, No. 2; 1946.

(2) عل أن علماء الطبيعة أنفسهم بدأوا يدركون أخيراً أهمية العامل التاريخي في الظواهر الطبيعية .

راجع في ذلك كتاب :

"The Freedom of Necessity", by J.D. Bernal; K.P., London, 1949.

الاكتساب الماضي ، إلا أنهم يقللون من شأنه ويحاولون أن يتخلصوا منه . ومن بين الطرق المؤدية إلى هذه الغاية القول بأن التاريخ « كما مارسه الطفل يدخل كعنصر أساسي ضمن مكونات البيئة » ، حيث يعنون بالبيئة « الموقف الراهن » للطفل . وهذا وصف دقيق لسلوك الطفل من الناحية الظاهرية phenomenological . ولكن الوصف الظاهري - مع التسليم بقيمته - ليس تفسيراً عالياً . وقد أوضح كهلر W. Köhler هذه الحقيقة في كتابه : "The Place of Value in a World of Facts" ولكن الجشطالتيين عامة ينسون ذلك عند التطبيق .

إن عالم النفس بحاجة إلى معرفة كيف تتدخل الأحداث الحاضرة في تحديد سلوك الفرد ، ومن ثم فلا بد له من الرجوع إلى الحقائق التاريخية ، لأنها الأرضية التي يتشكل الحاضر على أساسها . ومن الأمور التي لها دلالتها أن هذا الاستبعاد المبهج للعوامل التكوينية أو التاريخية لم يأت بفائدة ، ولم نصل عن طريقه إلى قوانين لضبط سلوك الطفل . ومن بين الأسباب التي تساهم في تعقيد الموقف أيضاً استخدام مصطلحات مجردة مثل « موجّه » vector « والقيمة الإلزامية » valence « والقوة » force ، معزولة عن كل ما نعرفه عن الجهاز العضلي العصبي والنسج ومربوطة ربطاً واهياً إلى حاجات الطفل وقدراته النامية . نعم إن اللعبة الموضوعية أمام الطفل تعمل كقوة جاذبة ، ولكن هذا غير صحيح في كل الأحوال . فكيف نفسر الحالة السلبية دون أن نلجأ إلى وقائع تاريخ الحياة ؟ أو كيف نفسر أن هذا الطفل تجذبه اللعبة والآخر ينفر منها بعيداً . بل وحتى عندما ينجذب الطفلان نحو اللعبة ، فمن المحتمل أن تكون دلالة انجذاب أحدهما مختلفة عن دلالة انجذاب الآخر . فالأول قد تجذبه أنه يملك لعبة مماثلة ، بينما انجذب الثاني محاكياً الأول (١) .

• • •

وأخيراً نعرض لمقال مارمر J. Marmor في « التحليل النفسي » . وهو مقال يغلب عليه الدفاع عن نظرية فرويد مع توجيه المهتمين بها إلى أوجه النقص فيها وكيفية التغلب عليها . ويقول مارمر إن الدعوى الرئيسية لتحليل النفسى ثلاثة :

(١) « الأنية الراحة في علم النفس الاجتماعي » - مصطفى سويف - مجلة علم النفس ، عدد ٢ ،

١- القول بالنشاط النفسى اللاشعورى ، ويتبعه مفاهيم : الصراع والكبت والمقاومة .

٢- القول بالحتمية النفسية ، ويتبعه القول بصدق الترابط الحر ودلالة الأحلام .

٣- القول بالتحويل transference ، ويتبعه القول بالحتمية التاريخية للسلوك .

وتلك كلها مفاهيم دينامية ، ولا يوجد بينها وبين المادية العلمية الحديثة أى خلاف . فإذا نظرنا فى البناء النظرى الذى يقيمه فرويد فوق هذا الأساس العلمى الذى تدعمه الملاحظات المتعددة وتجارب لوريا Luria (الذى استعان بالتنويم الصناعى لإثبات صحة افتراض الحتمية النفسية) فعلينا أن نعرف بأن هذا البناء مزيج من التفكير المادى الميكانيكى والغامى entelechistic . ويبدو ذلك بوجه خاص فى قوله بالغرائر .

وفرويد يشبه هوبز Hobbes إلى حد ما . فهو يعتقد أن النزعات الفطرية فى الإنسان هى فى جوهرها أنانية حيوانية مضادة للمجتمع ، وما مهمة المجتمع (والتربية) إلا أن تكف تنقم هذه النزعات وإلا بقاء المجتمع بالدمار . ولذلك كان فرويد متشاكماً فيما يتعلق بإمكان قيام اتحاد تعاونى إذ أن هذا الأمل مضاد للطبيعة البشرية التى لا يمكن أن تصبح شيئاً آخر غير جوهرها الفردى الأنانى . والواقع أن تصوير فرويد لأفراد المجتمع على هذا النحو هو كتصوير أجزاء الآلة تناس وتؤثر فى بعضها البعض على السطح ، أما الجوهر فيظل ثابتاً كما هو ليظل بقبحه الفطرى فى أوقات الحرب والتوتر . تلك الفكرة عن طبيعة فطرية جوهرية لا تتغير فكرة غائية entelechistic فى صميمها . وقد كتب بارلتل F.H. Bartlett بحثاً فى فرويد نشره عام ١٩٣٨ ذكر فيه ببراعة أوجه الشبه بين «الغو» الفرويدى وبين «الفرد المنزول» أو «الإنسان الطبيعى» لدى هوبز وروسو . وأوضح الصلة القائمة بين هذه المفاهيم وبين العلاقات الإنتاجية القائمة فى المجتمع الحديث . إلا أنه اتهم فرويد بالمثالية ، وهذا فى رأينا خطأ ، وفرويد كان مادياً ، لكنه كان مادياً ميكانيكياً .

والحجج الرئيسية التى يقدمها الفرويديون للتدليل على صدق قولهم بأن العدوان فطرى فى الطبيعة البشرية ، هى :

١ - انتشاره الواضح على نطاق عالمي .

٢ - الحيوان عدواني بالفطرة .

٣ - صغار الأطفال تبدو أنانيتهم ونزوعهم إلى التدمير بكل وضوح .

٤ - سيطرة العدوان بين القبائل البدائية .

وقد رد ماسلو A. H. Maslow على هذه الحجج جميعاً ، وإليك ردوده :

١ - ليست جميع الحيوانات عدوانية ، ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أننا كلما صعدنا في سلم التطور قرباً من الإنسان وجدنا العدوان يقل شيئاً فشيئاً ، كما أنه يبدو شيئاً فشيئاً كرد فعل معقول ومفهوم « لموقف كامل » . والشبانزي وهو أقرب الحيوانات إلى الإنسان يبدو أكثر تعاوناً وأقل عدواناً من الإنسان العادي^(١) .

٢ - تدل دراسات الأطفال على أنهم يبدوون من الكرم والتعاون مثل ما يبدوون من البغضاء والتدمير ! فإذا هدد الطفل في حاجته إلى الأمن والطمأنينة والحب وتقدير ذاته فإنه يبدي الأنانية والبغضاء والعدوان .

٣ - تدل دراسات الحضارات المقارنة على وجود اختلافات هائلة في درجة العدوان . وهناك عدد غير قليل من القبائل البدائية لا تكاد تكشف عن شيء من سمات العدوان في سلوكها^(٢) .

وينتقل مارمر من مناقشة هذه القضية وتصحيحها ، إلى مناقشة عدة قضايا أخرى أهمها قضية الإقلال من شأن البيئة الاجتماعية في تشكيل الشخصية ومصدر خطأ فرويدية في هذا الصدد .

على أننا نكتفي بهذا القدر ، منوهين بأهمية هذا الكتاب لما يثيره من مشاكل على جانب كبير من الخطورة في تقرير مستقبل البحث العلمي .

مصطفى سويف

(١) تبرز دراسات بركيز R. Yerkes هذه الحقيقة الهامة بكل وضوح .

(٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى دراسات الباحثة الأنثروبولوجية مارجريت ميد M. Mead في قبائل الزوفي والكوا كيوئل .